أهل البيت
يزورون القبر سرّاً

إعداد

مكتبة الروضة الحيدرية

النجف الأشرف

وظل الأئمة من أهل البيت عليهم السلام يوالون مع عدد من مخلصي أصحابهم زيارة القبر الشريف، وتعهده سرّاً والحديث عنه كذلك، وتحبيب زيارته. فقد زاره بعد ذلك الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام والإمام عليّ بن الحسين زين العابدين مع ولده محمّد الباقر عليهما السلام، وانشأ عنده الزيارة المعروفة بـ (أمين الله) وزاره الإمام محمّد الباقر عليه السلام مرّة أخرى مع ولده الصادق عليه السلام وزاره زيد ين عليّ (رض) مع أبي حمزة الثمالي وأبي قرة من أصحابه وحين استقدم المنصور الإمام الصادق عليه السلام إلى الحيرة زاره عدّة مرات يصحبه في كلّ مرّة بعض أصحابه وأعطى في أحدها نقوداً لصفوان الجمال لإصلاح القبر.... وممّن زاره مع الإمام عليه السلام ولده إسماعيل ومن أصحابه أبان بن تغلب، ومحمّد بن مسلم، وصفوان الجمّال، ومحمّد بن معروف الهلالي، وسليمان بن خالد، وأبو الفرج السندي، والمعلى بن خنيس، وزيد بن طلحة، وعبد الله الرضوي، والمفضل بن عمر، ويونس ين ظبيان، وزاره من الأئمة أيضا الإمام الكاظم سنة ١٤٩ هـ، الإمام عليّ الرضا سنة ١٩٩ هـ، ومحمّد الجواد سنه ٢٢١ هـ، وعليّ الهادي ٢٣٤ هـ، عليهما السلام وانشأ بعضهم زيارات خاصة عنده أو انشأوها ليزور بها أصحابهم (ع) إذا قصدوا المرقد وهي مدونة مسنده اليهم في كتب الزيارات(١).

وحين علم المنصور أنّ الإمام الصادق عليه السلام وعددا من أصحابه يوالون زيارة القبر. وكان كغيره من عامّة الناس يجهل موضعه أراد أن يتأكد من ذلك بنفسه فذهب منفرداً مع بعض خاصته وخَدمه وأمره أن يحفر في المكان المحدد للقبر، وكان يزوره بعد ذلك يناجيه معتذرا إليه مما يفعله بأبنائه وذكروا: إنّ داود بن عليّ أيضا فعل ذلك فشاهد كرامة باهرة أخافته فأمر ببناء القبر وصنع صندوقاً وضعه عليه. وفي عهد الرشيد رأى ـ وقد خرج للصيد في هذه المنطقة ـ كرامة حملته على أنّ ينعطف ويخشع ويقيم على القبر قبةً بيضاءً، وصنع على رأسها جرة خضراء، وكان ذلك سنة

١٧٠هـ، وكان يزوره ويصلّي عنده ويبكي عنده معتذراً إليه كما كان يصنع المنصور بولده. وممّن زار قبر الإمام عليه السلام في تلك الفترة عيسى بن جعفر. ومن الخلفاء زاره المقتفي والناصر، وأطلق عنده صلاتٍ وأموالاً.. وزاره المستنصر وعدد لا يحصى من العلماء والسلاطين والشعراء والأعيان(٢).

وفي نهاية القرن الثاني بدأ بعض الشيعة يسكنون عنده، ويدفنون أمواتهم حوله، ولم ينته القرن الثالث حتّى أصبحت النجف مدينة صغيرة. فقد ذكروا: أنّ محمّد بن زيد العلوي ـ صاحب طبرستان المتوفّى سنة ٢٧٨ هـ ـ بنى زمن المعتضد على القبر الشريف طاقاً للفقهاء والقرّاء والفقراء ... وفي سنة ٣٣٨هـ، أقام عضد الدولة البويهي المتوفّى سنة٣٧٢ هـ عمارة كبيرة وقبة أعظم وأفخم من القبة السابقة، وشيّد أوّل سور يحيط بمدينة المشهد (النجف) كلّها. ويبدو: أنّ هذه القبة هي القبة التي ذكرها الحسين بن الحجّاج المتوفّى سنة ٤٩١ هـ في مخاطبته للإمام قائلاً: يا صاحب القبة البيضاء في النجف من زار قبرك واستشفى لديك شفي زوروا أبا حسنٍ الهادي لعلّكم تحضون بالأجر والإقبال والزلـفِ(٣).

ولم يـبيّنوا لنا كم كان عدد سكان النجف لدى زيارة عضد الدولة لها إلا أنّهم ذكروا أنّهم أحصوا العلويين فقط فكانوا ألف وسبعمائة اسم.. وإذا كان الأمر كذلك، فالعلويين لا يشكّلون إلا نسبة ضئيلة بين السكان عادة، فكم يكون عدد السكان في ذلك التاريخ إذاً؟ بخاصة وقد ذكروا أنّه وزّع على المجاورين من غير العلويين خمسمائة ألف درهم.. وأظن أنّ للأسوار التي بنيت حول المدينة في هذا العهد وما بعده أثراً في هجرة الناس إليها من الكوفة خاصة لما تعطيه من حصانة وأمان... وقد أعطي لهذه الأسوار ـ في تاريخ المدينة ـ اهتماماً بالغاً، ففي سنة ٤٠٠ هـ، قام أبو محمّد الحسن بن سهلان الوزير البويهي السور الثاني حول مدينة المشهد (النجف) لكنهم لم يشيروا إلى أنّه أحدث في العمارة المقامة على المرقد الشريف أو القبة المباركة التي شيدها عضد الدولة تغييرا.. فقد ظلّت قائمة حتّى زمن الخليفة الناصر لدين الله العباسي الذي قام بين ٥٥٠ هـ ـ ٥٥٦ هـ بأعمال عمرانية واسعة، وأصلح جوانب من المشهد العلوي الشريف ... وفي سنة٧٦٠ هـ حدث حريق في المشهد فاصلح وجدد، ولم يذكر شخص معين أو جهة معروفة قيامها بهذا العمل، والظاهر أنّه كان عملاً جماعياً.

لقد ازدهرت في القرن الخامس وما بعده حتّى منتصف القرن التاسع ازدهاراً عظيماً و أصبحت مرموقة من الناحية العمرانية والتجارية، وورثت الكوفة مكانة علمية وسكاناً، فقد هاجر إليها الكثير من أهلها ـ بخاصة طلاب العلم فيها ـ فراراً من هجمات

الخوارج وغزو القبائل وملاحقة الحكام؛ فلاذوا بأسوار المشهد (النجف) الحصينة، وبحرمة الإمام عليّ عليه السلام، وبالمكانة العظيمة للحوزة العلمية التي أصبحت منذ هجرة الشيخ الطوسي سنة ٤٤٨هـ إليها مرجع الطائفة، ومركز زعامتها الدينية تبيّن لنا ذلك من الوصف الذي سجله لنا الرحالة المغربي ابن بطوطة المتوفّى سنة ٧٧٩هـ في رحلة لزيارة المدينة التي أكملها سنة ٧٥٦ هـ ووصفه لها وللمرقد المقدّس والمدارس الدينية حوله... وصف مدينة المشهد قال: نزلنا مدينة مشهد عليّ بن أبي طالب عليه السلام بالنجف، وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق، وأكثرها ناساً، وأتقنها بناءً، ولها أسواق حسنة نظيفة دخلناها من باب الحضرة (باب سور المدينة الخارجي).ف استقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين، ثّم سوق الفاكهة، تّم سوق الخياطين والقسارية، ثّم سوق العطارين، ثّم باب الحضرة (يعني باب الصحن الذي يحيط بالمرقد) حيث القبر الذي يزعمون أنّه قبر عليّ عليه السلام، وبازائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة، وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزيج عندنا لكن لونه اشرق ونقشه أحسن.

وصفه للصحن الشريف قال: يدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة(٤) يسكنها الطلبة، والصوفية من الشيعة، ولكلّ وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم. ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة، وعلى بابها الحجّاب والنقباء والطواشية فعند ما يصل الزائر يقوم إليه أحدهم أو جميعهم؛ وذلك على قدر الزائر يقفون معه على العتبة، ويستأذنون له ويقولون: عن أمركم يا أمير المؤمنين هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله الروضة العليّة فإن أذنتم له وإلا رجع، وإن لم يكن أهلاً لذلك فأنتم أهل المكارم والستر. وصفه للحرم الشريف قال: صنع من الفضة، وكذلك العضادتان، ثّم يدخل القبة وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه، وبها قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار، وفي وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل مسّمرة بمسامير الفضة قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء، وارتفاعها دون القامة، وفوقها ثلاثة من القبور يزعمون أن أحدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام، والثاني قبر نوح عليه الصلاة والسلام، والثالث قبر عليّ (رضي الله تعالى عنه)، وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن بها وجهه تبركاً، وللقبة باب آخر عتبته أيضاً من الفضة وعليه ستور من الحرير الملون يفضي إلى مسجد مفروش بالبسط الحسان مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير،

وله أربعة أبواب عتباتها فضة وعليها ستور الحرير... ثّم قال: ولهذه الروضة كرامات.. إلى آخره(٥).

ورغم أنّ قول ابن بطوطة عن النجف أنّها من أحسن مدن العراق وأكثرها ناساً،واتقنها بناءً. يعطي صورة عما بلغته النجف من سعة وازدهار في القرن الثامن إلا أنّها صورة مجملة لم تقدّر عدد السكان ولا عدد ما فيها من الدور..

وقد قدّر بعضهم دورها في تلك الفترة وما بعدها ـ عدا الخانات والمدارس ـ بما يقرب من سبعة آلاف دار ... وحين استولى الشاه إسماعيل الأوّل الصفوي المتوفّى سنة ٩٣٠هـ مقاليد بغداد سارع إلى زيارة النجف، واعتنى بشؤونها وأصلح نهراً بقربها عرف بـ (نهر الشاه) كان يجري من الفرات بقناة خاصة تحت الأرض.. فأنهى بذلك مشكلة شحة المياه، وانتعشت النجف أيما انتعاش في زمنه وبعده بعقدين.. ثّم توالت عليها المحن والنكبات.

---

١ ـ لذلك يكون تشكيك البعض في موضع القبر الشريف الذي رواه الخطيب البغدادي عن بعضهم ا لم يكن مقصوداً، أو كان نتيجة لإخفاء القبر عن الأعداء وغير المؤمنين ـ تشكيك جاهل أمام عالم على يقين والأجنبي البعيد أمام القريب الحميم فلا قيمة له.

أولاً: لأنّ أبناء الرجل وأهله كما يقول ابن أبي الحديد: اعلم بموضع قبره ثّم الخاصّة من شيعته وقد عرفت أعلاه إجماعهم على أنّ هذا هو موضع قبره عملاً ودلالة قولية وتوصيفاً. ثانياً: لأنّ قبر المغيرة بن شعبة في مقابر ثقيف في (الثوية) على ما يثبته المؤرخون وهما على مسافة أكثر من ١٢ كم من القبر الشريف ومثله قبر زياد بن أبيه لعنة الله عليه. وقد ذكر ابن الجوزي: إنّه دفن في ظهر الكوفة ثلاثمائة صحابي لم يعرف منها إلا قبر عليّ بن أبي طالب دلّ عليه ولده الصادق عليه السلام. ثالثاً: ذكر العلامة الباحث الورع الشيخ محمّد حرز الدين في مراقد المعارف (ج٢/٣٢٣/٣٢٤) عن الثقة المعاصر له داود الحجّار أنّه كان ينّقب عن الحجارة في ظهر الكوفة في منطقة (الثوية) قرب الطريق العام القديم بين النجف والكوفة على بعد مائة خطوة من قبر العالم الجليل كميل بن زياد فعثر في الأرض على موضع فيه حجارة دفينة وصخر مكتوب عليها بالخط الكوفي فقلعها واحتفظ بها واطلع عليها العالم الزاهد الملا الشيخ عليّ الخليلي النجفي المتوفّى سنة ١٢٩٧ هـ، وحكى له أمرها فقال: بعد قراءتها له احملني إلى مكانها قال فاركبته دابتي والصخرة أمامه حتّى انتهينا إلى موضعا فوضعها الشيخ في مكانها وسوّى عليها التراب بيده، وقال: أنا آمرك أنّ لا تنبش هنا

فأنهّا مقبرة لوجوه المسلمين في الكوفة، وهذه الصخرة رسم قبر المغيرة بن شعبة كما هو نص كتابتها.

٢ـ لدلائل البرهانية في تصحيح الحضرة الغروية ـ للعلامة الحلّي ـ م ٢ ص ٨٣٧ ـ ٨٥٢، المطبوع مع كتاب الغارات ـ للثقفي.

٣ـ الكنى الألقاب م١ ص ٢٥٦.

٤ـ كانت أُولى المدارس وأعظمها.

٥ـ رحلة ابن بطوطة.